مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

صفر 1437 هـ - نوفمبر 2016م

• «أرض كافكا»
• منيشا سيتهي

• «إله واحد وأرباب متفرّقون»
• جان آسمان

• «اقتصاد الصالح العام»
• جان تيرول

• «الكنيسة في العراق»
• فرناندو فيلوني

• «المغامرة الغربية»
• بول كلافال

• « الأخلاق في العالم الواقعي»
• بيتر سينجر

• «ثقافة النمو»
• جويل موكر

• «انحناء أمام المرايا»
• مارتين ر. دين

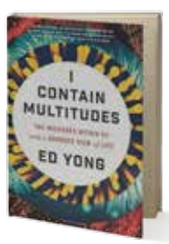

• «المحتوى المتعدد»
• إد يونغ

• «تدخلات محفوفة بالمخاطر»
• هارديب سينغ بوري

• «تشريح الهندسة المعمارية»
• سيرغي كافتارادزي

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من المصادر الأجنبية المُهمة لعُمان كتاب «سفارة إلى الدول الشرقية: إندونيسيا، وسيام، ومسقط»، للدبلوماسي ورجل الأعمال الأمريكي إدموند روبرتس. وهو يوميات بعثة دبلوماسية قام بها روبرتس سنة ١٨٣٢، بصفته ممثلاً خاصاً للحكومة الأمريكية، ضمن وفد دبلوماسي ليتفاوض في اتفاقيات تجارة وتفاهم مع كل من زنجبار، ومسقط، وسيام، وإندونيسيا. وقد استغرقت الرحلة ثلاث سنوات، توقف خلالها في مسقط سنة ١٨٣٣.

يصف روبرتس موقع مدينة مسقط، ويقول إنّها تقع في وسط الميناء، على المستوى الوحيد من الأرض الذي يُمكن أن يرى من المنطقة بين سلسلة عالية من الصخور في الجزء الجنوبي الغربي. وهي محاطة بسور، عدا الجزء الذي يواجه الميناء، ولها أبراج مُستديرة على الزوايا الرئيسية. ويذكر أنه يقطن داخل أسوارها حوالي اثني عشر ألف نسمة، ويؤكد بأنّ الجزء الأكبر من السكان هم من العرب، أما البقية فهم من مُختلف الأجناس؛ من الهندوس، والفرس، والسند، والأحباش، والعبيد الزنوج من ساحل زنجبار، و«الكل يُقيمون في أمن تحت ظل حكومة مُعتدلة عادلة لأمير جدير بالتقدير».

ويتحدَّث روبرتس عن المهن في مسقط، ويقول إنّه يُمكن أن تَرى في المدينة نساجين ينسجون بعض الأقمشة الجميلة، بأطراف حمراء وصفراء من الحرير، التي تكون العمامة، يلبسها، عموماً، كل العُمانيين، سواء السلطان أو الرعايا من الشعب. ويقول: «يحفر النساجون حفرة في الأرض لأقدامهم، ويكونون مقعداً بارتفاع خطوة إلى أعلى، ليجلسوا عليه، وهم يستخدمون نَوْلاً بدائياً جداً، ويمدون الشبكة فوق الأرض بنحو بوصات قليلة، ويستخدمون ظلاً من سعف النخيل لحمايتهم من أشعة الشمس». ويضيف بأنّه يوجد قليل من صُناع الفضة والنحاس والحبال والنجارين وصناع الأحذية، وهذه هي، في الغالب، السلع الرائجة في تجارة مسقط إلى حد ما. كما أنَّ حرفة ميكانيكا الآلات تُمارس في الشوارع، تحت ظلال مفتوحة. ومنفاخ الحدادين مصنوع بطريقة بدائية جداً، وهو عبارة عن قربتين صممتا بطريقة بحيث إذا امتلأت إحداهما بالهواء ينفخ بالأخرى بيد موضوعة على كل منهما، وهكذا بالتناوب تضغط وتفرغ القربتان. وتستخدم حفرة في الأرض لوضع النَّار، وحفرة أخرى لوضع الماء، ويستخدم حجر للسندان، وبمطرقة غير متقنة الصنع، وهم يجلسون على ركبهم يمارسون صنعتهم ببطء. أما الحلاقون الهنود، كما يؤكد روبرتس، فيقومون بعملهم عموماً في الشوارع. وبعد حلاقة الشعر يقومون باستخلاص كل شعرة في الوجه حول الأنف والأذن، ويشذبون الشارب واللحية، ويقلمون الأظافر.

ويتحدَّث روبرتس عن التسامح الديني في مسقط، ويؤكد بأنَّ «كل الديانات في مناطق نفوذ السلطان، يُعامل أتباعها بتسامح شديد، وليس هذا فحسب، بل تقدم لهم الحماية الكافية بأمر من السُّلطان، ولا توجد أية عقبات تمنع النصارى واليهود أو غيرهم من مُمارسة شعائرهم الدينية، أو بناء معابدهم». ويقول إنَّ الجزء الأكبر من أتباع السلطان هم على المذهب الإباضي، «وهم يمتنعون عن تعاطي التَبغ والخمر، ومن أيّ نوع من أنواع الأبهة والتفاخر في ملبسهم وفي منازلهم وفي مساجدهم».

hilalalhajri@hotmail.com

إله واحد وأرباب متفرّقون التوحيد والتعدّد في مصر القديمة .. جان آسمان

عز الدين عناية*

لا تزال مسألة التوحيد في الديانة الأخناتونية (أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد) مثار تساؤلات عدة في أوساط مؤرخي الأديان، وذلك لخروجها عمّا هو مألوف في التقاليد الدينية المصرية القديمة المحكومة بالتّعدد والتجسيم في قضية الألوهية، ما جعل العديد من الدراسات الحديثة تسلّط الضوء مجددًا على هذه الديانة بقصد تفسير ذلك الحدث. وبهذا المفهوم تُعدّ الأخناتونية الموحّدة ديانة مُتفردة ضمن التقليد التّعددي للتراث الديني المصري، دفعت البعض إلى ربطها بالتراث الإبراهيمي وإن لم يفصح التراث الكتابي عن ذلك. كتاب المؤرخ جان آسمان المتخصص في علم المصريات هو من الأعمال الجديدة الصادرة في المجال. والمؤلف من المهتمّين بالحضارة المصرية القديمة وقد درّس في العديد من الجامعات الغربية، في هايدلبرغ وباريس وشيكاغو وهوستن، وصدرت له مجموعة من الأعمال في الشأن منها: «اللّه والأرباب: مصر وإسرائيل ونشأة التوحيد» (٢٠٠٩)؛ «التميز الموسوي أو ثمن التوحيد» (٢٠١١) «الدين الكلّي: أصول العنف الديني وطبيعته» (٢٠١٥).

يعالج الكتاب الذي نتولى عرضه مسألتين أساسيتين: الأصالة الجوهرية للتوحيد والبنية العقدية للتّعدد في مصر القديمة. مقدرا جان آسمان أن المرور من التعدد إلى التوحيد الذي هلّ مع الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، بعد رحلة طويلة في العالم القديم هو أحد التحولات المهمة التي جرت على غرار التحضّر وبناء الدولة وإبداع الكتابة. والبادئتان اللتان تسبقان المصطلحات الغربية (mono)و (poli)، والواردتان في مقدمتي اصطلاحي التوحيد (monotheisme) والتعدد (politheisme)، للتمييز بين الوحدة والكثرة، المفرد والجمع، لا تقدِر كلتاهما، وبشكل كاف، على توصيف تلك الرحلة. إذ الجلي أن نصوص مصر القديمة الدينية تطفح بالثناء على «الواحد والأوحد»، لكن الأمر ما كان يعني تواجد إله واحد، بل الكل، أي الكون وما حواه من آلهة، هي جميعًا متأتية من إله أوحد، من أصلٍ ينبَع منه الكلّ ويخضع له الجميع.

وعلى العموم ينبني الحديث عن الواحد في أديان العالم القديم، كما يلاحظ جان آسمان، على معطيين مختلفين: من جانب نجد تلك التي ترفع شعار «لا إله إلاّ الواحد» ومن الجانب الآخر تلك التي تتبنى «كافة الآلهة هي واحد». ويمكن اعتبار الشكلين أحدهما يعبّر عن «الوحدانية المانعة» والآخر عن «الوحدانية الجامعة». وضمن نطاق الوحدانية المانعة يتمحور المعتقد القائل بأنّه «ثمة أرباب متفرقون، لكن بالنسبة إليّ، أو بالنسبة إلينا، أو بالنسبة إليكم لا يمكن أن يكون إلا واحدا»؛ وقد أطلق آسمان على هذا النوع «توحيد الإخلاص»، وهو ما يشكّل من وجهة نظره المستجد البارز الذي أدخلته الديانة اليهودية في تاريخ الأديان، وما لم يحضر في مصادر مصر القديمة إلا في حالة طارئة وحيدة مع الأخناتونية.

ودائماً في نطاق مُعالجة مسألة الأصالة الجوهرية للتوحيد يتعرض آسمان إلى نظرية ويلهالم شميدت بشأن فكرة أصالة التوحيد الواردة في مؤلفه «منشأ فكرة الله»، الصادر سنة ١٩١٢. مقرًا آسمان بقدرة شميدت على الإحاطة التاريخية والثقافية بالموضوع وتوفيقه في موقعة الظواهر الدّينية ضمن سياقاتها التاريخية، أي ضمن نظرية الدوائر الثقافية وتداخلاتها. فمع شميدت ليست الآلهة المعبودة سوى انعكاس لواقع بشري محدد. إذ يذهب، من خلال اعتماد منهج صارم، إلى أنّ مختلف أصناف الدّين تتلاءم مع أطوار ثقافية، وفي كل طور ثقافي يسود المعتقد نفسه بإله جوهري، سواء لدى الأجناس الهندو-أوروبية أو لدى هنود أمريكا الشمالية وكاليفورنيا الوسطى أو لدى غيرهم من الشعوب. وتبعًا للتقصي الذي قام به شميدت حول منشأ فكرة الله، حدّد ثلاثة أسباب أساسية لذلك، تأتّت جميعها من معاينات إثنوغرافية: الحاجة إلى العلّية والكلّية والتشخيصية. وقد أكد شميدت ضمن ذلك السياق أن البدائيين أناس يتمتعون بتفكير منطقي وقادرون على إضفاء صبغة عملية على الأمور، وبوسعهم الإقرار بوجود إله أوحد. فهل يُمكن القول بوجود حضارة بدائية، خلال مرحلة الطفولة البشرية، هي منبع جامع لكل الأديان وكل الحضارات؟ ويلهالم شميدت يؤكد أنّ بإمكاننا القول إنّ التوحيد الإلهي متأصّل لدى الإنسان، ولم يتم إلا لاحقًا، بتشكّل علاقات مغايرة وظهور تعقدات معيشية، أن عرف التوحيد شيئاً من الطمس.

لكن ويلهالم شميدت، بوصفه رجل دين، كان مجبرًا على تقديم فكرة الوحي الإلهي كلازمة، وهو ما عارضه فيها كل من إدوارد بورنت تيلور وأندرو لانغ. وضمن هذا السياق تبدو نظرة شميدت متضمنة في الآن نفسه نفياً للدين الطبيعي الصرف، بالمعنى الذي تعنيه الأرواحية، وانحلالا متواصلا للدين منذ الحضارة الأصلية. ذلك أنَّ التقدم المادي والتقني للبشرية قد صحبه تراجع جلي للفكرة الدّينية. والجلي مع طروحات شميدت أنّه يصعب القبول بالنتائج التي توصل إليها، وما يمكن أن يتبقى بالمحصلة من عمله، أن فكرة أصالة التوحيد ليست مجرد نتاج تطور تاريخي ولكنها تبدو حاضرة ومعيشة في عديد الأشكال الأساسية في الحياة الدّينية. وكل المسألة تتلخص في معرفة ما إذا كان التوحيد فطريًا أم هو مجرد فكرة تهيَّأ لعقل الإنسان المتأمل أن يصوغها من مجموع إدراكاته للمقدّس؟ وبهذا المعنى فإنَّ فكرة الله تبدو ملازمة للإناسة الدّينية كما بالمثل للتاريخ البشري.

وفي السياق نفسه يستدعي آسمان المؤرخ الإيطالي رفائيلي بتّازوني الذي يعتبر ألا سبيل للحديث عن التوحيد بمعناه الصائب إلا بالانطلاق من التجربة التي تتيحها الأديان التوحيدية الحالية. فمن الثابت أنَّ تلك الديانات قد نشأت عقب إصلاح ديني يُعارض التعدد السائد. ومن هذا الباب، فالتوحيد الذي يُعتبر نفياً للتعددية التي ثار ضدها ونازعها الدور باسم مطلب روحي أرقى، لا يُمكن أن يكون شكل الدين الأول كما يؤكد ذلك أنصار نظرية أصالة التوحيد. إذ ليس التوحيد الذي نجده لدى الشعوب غير المتحضرة توحيدا خالصاً، ولكن مجرد فكرة هلامية تفتقر إلى الصياغة في قالب مفهومي ضمن منظومة عقدية لكائن أعلى. ذلك أنَّ التوحيد بالمعنى التاريخي للمصطلح ليس نتاج تطور ديني وإنما هو نتاج ثورة دينية.

وفي المحور الثاني من الكتاب، المعنون بالبنية العقدية للتوحيد في مصر القديمة، يتناول آسمان مظاهر الاتصال والانفصال بين الأخناتونية واليهودية. إذ

الجلي في هذا السياق أنَّ عالم النفس سيغموند فرويد قد تناول المسألة من منظور تاريخي وسيكولوجي في كتابه «موسى والتوحيد». وافترض أن النبي موسى عليه السلام كان على علاقة وطيدة بأخناتون دينيا وسياسيا، حيث كان أحد قادته العسكريين. وبناء على هذا جرت محاولات لضبط نقاط الاختلاف والاتفاق بين الدينين، حتى قيل إنّ دين موسى اللاحق ليس سوى تقليد لدين أخناتون السابق. ولكن تتضح فروقات دقيقة بين الدينين لا يمكن حصرها إلا بالتمعن والتدقيق وإن كانت لا تخرج عن المشترك الجامع بين الديانات التوحيدية.

يضرب جان آسمان مثلاً على مشكلة المقارنة بين الأديان، فعلى سبيل المثال نصادف معتقد التوحيد لدى قبائل بدائية تشترك فيه مع ديانات راقية، ولكنّ هذا التوحيد الذي نجده عند بعض القبائل ليس بالمعنى العقدي الصرف المتعارف عليه في الديانات السماوية، وإنما هو توحيد قبلي ينبع من تفضيل أحد الآلهة على أخرى. وهو ما يُعرف بالواحدية (enotheisme)، أي واحد من جملة آخرين وليس الوحيد في معنى (monotheisme)، وهو ما امتازت به اليهودية والإسلام والمسيحية في مرحلة مُبكرة.

فالمعروف أنَّ مصر قد عرفت التوحيد الصارم، الفجئي والحازم، مع ارتقاء الفرعون أمنوحتب الرابع العرش سنة ١٣٧٥ ق.م. فعلى إثر تبنيه المعتقد الجديد تسمّى بأخناتون، وشنّ حملة شعواء على كافة مظاهر الديانة المصرية التعددية السائدة في ذلك العصر. أتى أخناتون بنقيض لها في العقائد والشرائع ولكنّ سلطانه لم يعمّر سوى سبع عشرة سنة فحسب. يذهب سيغموند فرويد في تفسيره للحدث إلى أنَّ الدولة المصرية التي كانت ترنو للعالمية كانت في حاجة إلى ديانة توحّد بين رعاياها وهو ما مثل حافزا للظهور الفجئي للديانة التوحيدية في مصر حيث «انعكست الإمبريالية في الديانة فصارت ديانة عالمية توحيدية» على حد قوله في كتاب «موسى والتوحيد» (ص: ٢٩). والجلي أنَّ بوادر نشأة التوحيد المصري تعود إلى زمن سابق عن عصر أخناتون، ففي مدرسة الكهنة في معبد الشمس في أون (هيلوبوليس) لاح نهج لاهوتي يسير نحو تطوير فكرة إله وحيد وعالمي في الوقت نفسه. ويذهب فرويد في شرح العامل السياسي المولد لهذا المعتقد قائلاً: «فما دام نفوذ الفرعون قد تجاوز الآن مصر إلى النوبة وسوريا فإن فكرة

الألوهية كان عليها أن تتخلى عن تحدّدها القومي وكان على إله المصريين الجديد أن يغدو كفرعون السيد الفريد غير المحدود، سيد العالم المعروف لدى المصريين» (ص: ٢٩).

ونلاحظ أنَّ هذه الأفكار التي يتعرض لها جان آسمان بشأن الديانة الأخناتونية والتي أخذ بها عالم النفس سيغموند قد لاقت صدى أيضاً لدى بعض الكتاب العرب فثريا منقوش في كتابها «التوحيد في تطوره التاريخي: التوحيد يمان» (ص: ١١٥). رأت أن القرن السادس عشر قبل الميلاد، الذي يمثّل بداية التوسعات العسكرية في تاريخ شعوب المنطقة، قد ساد فيه عمل دؤوب على مركزة السلطة السياسية وتجميعها، وهو ما تولد منه توحد للآلهة العديدة في إله واحد كوني ولكن الصراع المتواجد داخل الجهاز الديني أبطأ هذه العملية إلى القرنين التاليين حتى وجد الأمر معينا في الجهاز السياسي مع الفرعون أمنوحتب الثالث، أي أخناتون، الذي بدأ في إملاء سلطة الإله الواحد استجابة لمتطلبات مركزة السلط.

يتساءل جان آسمان عن الدواعي التي دفعت بفرويد للقول إن إله أخناتون ليس سوى الإله الموسوي. لقد تمثل أخناتون إلهه الوحيد في قرص الشمس، وكأن العقلية البشرية حتى ذلك العهد ما زالت لم تتخلص من تجسيم الإله وتشبيهه بعدُ، حيث إنّ الشمس التي عبدها الإنسان قديمًا لا تزال حاضرة في الوعي البشري كرمز للعطاء والخير رغم أن أخناتون كان يقول إن هذه الشمس هي بمثابة ظل الله في هذا الكون وليست هي الله، واختار لإلهه اسم الإله المعروف آتون الذي يرجع تأليهه إلى عصر تحتمس الرابع. والمعروف عن هذا الإله أنّه كان يعيش في علاقة ودية مع غيره في مجمع الآلهة، ولكن بعد أن احتد الصراع بين كهنة المعبد صعد هذا الإله حتى اتّخذ المكانة المعروفة. ومما أوحى لفرويد أنّ الإله الأخناتوني قد تبناه موسى، التشابه في التسميات بين الإله العبري أدوناي والإله المصري آتون. حيث نجد فرويد في «موسى والتوحيد» يلحّ على أنَّ الكلمتين تنبعان من مصدر واحد. إذ يصرّ على ربط العبارتين، مرتئياً أنهما تتحدران من مصدر واحد عن طريق أدونيس الإله السامي المتواجد في شمالي سوريا وبابل. ولتقريب الأمر للأذهان يترجم الفاتحة العبرية «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد» (التثنية٦: ٤) بـ«اسمع يا إسرائيل إنه إلهنا آتون هو الإله الوحيد». ونجد من الكتاب العرب المهتمين بتاريخ الأديان من انتقد ذلك الخلط الذي وقع فيه فرويد. يقول سهيل ديب في كتابه «التوراة بين الوثنية والتوحيد» (ص: ٤٤): «إنّ تشابه تسمية الرب آتون لدى الفراعنة وآدون وآدوناي لدى العبرانيين ليست حجة كافية، ولو توقف عندها الكثير من العلماء المرموقين مثل فرويد وغيره، وكلمة آدون بالعبرية هي ما يُقابل كلمة السيد أو سيدي إلا أن فرويد يصرّ على الربط بين العبارتين بأن يجعلهما من مصدر واحد».

لقد قيل الكثير في ديانة أخناتون من حيث تفسير أصولها العقدية والتشريعية، لكن يبقى الشيء المتفق عليه بين مجمل الدارسين وهو أصالة التوحيد في هذه الديانة. ولعل الجدل الدائر بشأن أخناتون يجليه قوله تعالى: «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»، نظرًا للتماثل الكبير له مع تراث الديانات السماوية. فهناك اعتبارات عدة تدفع إلى إلحاق أخناتون بالعائلة التوحيدية، وهو الدور الذي ينبغي أن يتولاه تاريخ الأديان بعيداً عن النزعات المادية التي تتجاذبه.

الكتاب: إله واحد وأرباب متفرّقون.. التوحيد والتعدد في مصر القديمة.
تأليف: جان آسمان.
الناشر: منشورات ديهونيان (مدينة بولونيا- إيطاليا) «باللغة الإيطالية».
سنة النشر: ٢٠١٦.
عدد الصفحات: ١٦١ص.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا